

أيتها العائلة المحترمة الاحترام وحده لا يكفي

« من لا يعرف شيئاً ، لا يجب أحداً ، ومن لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، لا يفهم أحداً ، ومن لا يفهم شيئاً ، لا قيمة له ، ولكن من يفهم فإنه أيضاً يجب ومحترم ويرى ، وكلما ازدادت المعرفة بشئ . . عظم الحب ، وزاد الاحترام » .

هذه العبارات التي قالها الحكيم « باوسيلوس » ، هي التي ترددت في جنبات رأسي طوال مشاهدتي لهذا العرض المسرحي الجديد ، الذي تقدمه فرقة « الفنانين المتحدين » بعنوان : « إنها حقاً . . عائلة محترمة » .

على أن عبارة « باوسيلوس » لم تقدم جواباً على سؤال قديم ، بمقدار ما أثارت هي نفسها سؤالاً جديداً ، هل الاحترام فن ؟ إذن فهو يقتضي الحب والمعرفة . هل هو مجرد إحساس بالكرامة وشعور بالكبرياء ؟ إذن فهو يستلزم الحفاظ على أنفع ما في العادات وأرفع ما في التقاليد ، دوغما انغلاق عن مواكبة تيار العصر ، وتطور الحياة .

فإذا عدنا وسألنا ، كيف نحترم أنفسنا ، وكيف نجبر الآخرين على هذا الاحترام ؟ . كانت الإجابة . . إن الخطوة الأولى التي ينبغي علينا أن نخطوها ، هي أن نصبح واعين بأن الاحترام فن ، تماماً كما أن الحب فن ، وكما أن الحياة فن ،

فإذا أردنا أن نتعلم فن الاحترام ، كان علينا أن نتطلق بالطريقة نفسها التى نتطلق بها
إذا أردنا أن نتعلم أى فن آخر كالموسيقى أو الرسم أو التجارة ، أوحى فن الطب
والهندسة !

وعملية تعلم فن من الفنون لابد أن تمر بمرحلتين ، السيطرة على النظرية ، ثم
السيطرة على الممارسة ، وعندما تندمج نتائج المعرفة النظرية مع نتائج الممارسة
التطبيقية فى كل واحد ، تكتمل جوانب هذا الفن . وهذا هو الدرس المستفاد
الذى نخرج به من هذه المسرحية التى يعود بها ثنائى مسرحنا الكوميدي «فؤاد
المهندس ، وشويكار» إلى العمل المسرحى ، بعد غيبة طويلة عن هذا الفن
وجمهوره .

فهنا مسرحية تقتطع من تيار حياتنا الاجتماعية موجة بعينها من تيار هذه الحياة ،
أو شريحة بذاتها من شرائح هذا المجتمع ، إنها تصور أولئك الذين يحرصون على
صورة الحياة دون مادتها ، وعلى شكل العلاقات دون مضمونها ، وعلى الإطار
المظهري الخارجى بصرف النظر عما يحتويه هذا الإطار . قد يحتوى على الزيف ،
وعلى التهرؤ ، على التسيب والانحراف ، على الكذب والخداع ، على كل ما هو
قبيح وزرى فى سلوكنا العام ، ولكن هذا كله لا يهم ، وإنما الذى يهم هو الشكل
الخارجى والإطار المظهري .

هذه هى الحياة التى تعيشها إحدى أسر المجتمع المصرى ، إنها أسرة « الأستاذ
أبو الفضل جاد الله » ، الموظف بإحدى المصالح الحكومية ، هى بالتحديد
« مصلحة التنظيم » والذى ترقى فى وظيفته درجة درجة ، حتى وصل إلى درجة
المدير العام ، وأصبح على وشك الترقية إلى درجة وكيل الوزارة . إنه مثال نموذجى
للاضباط الكامل فى العمل ، والنظام المتناهى فى البيت ، إن مثله الأعلى فى

عمله . . حسن السير والسلوك ، وفي بيته حسن الطاعة والاحترام .
ولقد عود أولاده الثلاثة من زوجته الأولى التي توفيت ، تاركة له أمها لترعى
البيت والأولاد ، عودهم على هذه الأخلاق الحميدة ، حتى إن علاقته بهم يمكن
أن يؤرخ لها بثلاث ثورات كبرى حدثت في تاريخ هذه العائلة ، يوم طلب منه ابنه
الأصغر « جاد » أن يحضر له كلباً صغيراً يلعب به في البيت ، ويوم طلبت ابنته
الوسطى « عائشة » أن تشترك في فريق التمثيل بمدرستها الثانوية ، ويوم طلب ابنه
الأكبر « نور » الطالب بإعدادى كلية الهندسة أن يسافر إلى أوروبا للعمل والسياحة
كما يفعل باقي زملائه من الطلاب . يا لها من طلبات اعتبرها الأستاذ « أبو الفضل
جاد الله » من قبيل الثورات ، ثورات على الأخلاق الحميدة التي توارثها آبا عن
جد ، والتي عمل على إرساء قواعدها في البيت عشرين عاماً ، سواء في حياة
زوجته أو بعد أن فارقت زوجته الحياة .

أماحاته ، جدة الأولاد ، « علوية هانم الأسيوطى » ابنة « سليم بك
الأسيوطى » ، ابن « الأسيوطى باشا » ، التي تمتد عراقه أصلها وفضلها إلى
« مينا » موحد القطرين ، فهي أشد منه صرامة ، وأكثر حفاظاً على التقاليد ، إنها
تعيب عليه تهاونه في تربية الأولاد ، إلى الدرجة التي جرءوا فيها على القيام بهذه
الثورات ، ولو ترك لها الأمر لما جرؤ واحد منهم على أن يقدم له طلباً من هذه
الطلبات .

وتقتحم الأسرة ذات صباح باكر ، راقصة من راقصات الليل ، أو بالأحرى
من راقصات كباريه الورد الحمراء ، ويكون اقتحامها هذا بمثابة الثورة الرابعة في
تاريخ هذه العائلة المحترمة جداً ، وهي الثورة التي تحقق كثيراً من النجاح ، في
الوقت الذي أخذت فيه الثورات الثلاث الأخرى .

لقد اقتحمت البيت في الصباح الباكر ، بعد أن فرغت لتوها من عملها في الكباريه ، اقتحمته بعد أن فرغت الأسرة بالكاد من شعائر الإفطار ، وتأهبت لأداء طقوس العمل ، الأب يؤدي صلوات الوظيفة في المصلحة ، وحامته تؤديها في البيت ، والأولاد في المدرسة ، إنه دين كتابه الاحترام ، وفرائضه الأخلاق الحميدة .

أما الراقصة ، ذلك الكائن غير البشري أو بالأحرى الكائن الحشري ، فقد كان اقتحامها للبيت من قبيل الكفر أو الإلحاد أو الخروج على ديانة العائلة ، لقد جاءت تلتبس من الأستاذ أبو الفضل جاد الله ، ألا يأمر بهدم البيت الذي تسكن فيه ، والذي قررت اللجنة الموفدة من مصلحة التنظيم أنه آيل للسقوط ، وبهرها الرجل في بادئ الأمر ويطردها من بيته ، ولكن رائحة الأنثى تعشش في خياشيمه ، وتضاريس المرأة تظل عالقة بخياله ، فلا تهدأ له حوامس ، ولا تنام له أعصاب ، فيقرر أن يزورها في بيتها ، بمجرد انصرافه من المصلحة ، لقد لعبت المرأة بحواسه الخمس ، وبعثت رجولته التي كان قد دفنها مع زوجته في القبر ، فلماذا لا يدخل الدنيا مرة ثانية ، ولماذا لا يعيش مرتين ، طالما كان الموت مرة واحدة ؟ .

وتوافق الراقصة واسمها « أومة » على الزواج منه ، وكانت قد شمت حياة الليل ، وعاودها الحنين إلى حياة النهار ، كانت قد ملت ضوء الكباريه واشتاقت إلى نور البيت ، كانت قد ضاقت بمعاشرة كل الرجال ، وتمنت أن يكون لها رجل واحد .

وتستقل « أومة » للحياة بين جدران هذه العائلة المحترمة ، ولكن الجميع يناصبونها العداء ، الأولاد يدبرون لها المقلب ، والجلدة تحيك لها المؤامرات « والأستاذ أبو الفضل » يحاول جاهداً أن يطبق سياسة الوفاق ، ويطفئ الحرب

بين المعسكرين . ولكن « أوسة » بخبرتها العميقة في الحياة ، وتمرسها الطويل بمعاملة الآخرين ، تنجح في ترويض الجميع ، ويرتكز نجاحها على إخراج كل فرد من أفراد هذه العائلة من تحت ركام التقاليد ، وأنقاض العادات ، فضلاً عن إخراجه من شرققة الاحترام ، إلى حيث يحيا كما يحيا الآخرون .

أما الابن الأكبر « نور » فتقف إلى جواره ، وتثير فيه كوامن الشباب ، وتشجعه على أن يكون له رأيه الخاص في كل شيء ، بما في ذلك سفره إلى أوروبا مع بقية زملائه . وأما الابنة « عائشة » فتشجع رغبتها في التمثيل ، وفي الاشتراك في فرقة التمثيل بالمدرسة ، وأما الابن الأصغر « خالد » فتعده بأن تحضر له الكلب الذي كان يحلم به ويتمناه ، وحتى الجدة « علوية هانم » تقف « أوسة » إلى جوارها ، عندما يتقدم لها « بسيوى بك أبو الليل » ، وكيل الوزارة التي يعمل بها « الأستاذ أبو الفضل » ، طالباً يدها ، بعد غرام قديم منذ أيام الشباب ، وقفت التقاليد العائلية حائلاً دون إتمامه بالزواج .

وهكذا تنجح أهداف الثورة التي شنتها « أوسة » على هذه العائلة المحترمة ، لأن الانفتاح على الحياة ، والخروج من معتقلات الكبت وسجون الحرمان ، هو الاحترام الحقيقي للذات ، وهو الاحترام العملي للمجتمع . وعندما تختل موازين القوى أمام « الأستاذ أبو الفضل » ، ويخيل إليه أن بيته قد آل للسقوط ، يفكر في الخلاص من « أوسة » بالطلاق ، وترضخ هي بالفعل لتفكيره ، وتعد حقيقتها وتنبأ للرحيل ، ولكن الجميع يتمسكون بها ويتضامنون معها ، ويعدون حقائبهم للرحيل . ويخلو البيت على الرجل ، ويشعر بفقدان كل شيء إلا البرودة والوحدة والفراغ ، فيقرر أن يستعيد كل شيء ، بعد أن ينظر للحياة بمنظار جديد . تلك هي خطوط الطول والعرض في هذه المسرحية الجديدة « إنها حقاً عائلة

معتزلة» التي تؤكد في النهاية أن الاحترام وحده لا يكفي ، وأن الحياة هي «قصة» الاحترام وهي أيضا «قيمة» الاحترام ، وصحيح أن هذه المسرحية التي كتبها كل من «سمير خفاجي ، وبهجت قر» ، تذكرنا بمسرحيتها السابقة «العيال كبرت» سواء من حيث معالجتها لمشكلات الشباب داخل الأسرة ، أو تناولها لقضية العلاقة بين الأجيال وهل هي قضية لقاء أم قضية صراع ؟

وصحيح أن الأحداث هنا تكاد تكون هي الأحداث هناك ، العائلة التي تتفكك روابطها ، والعلاقات التي تنهأ بين الأب والأولاد ، وسوء الفهم أو سوء التفاهم الذي ينشأ بين الجميع نتيجة لاختلاف ظروف الأجيال ، وصحيح أيضا أن الشخصيات هنا تكاد تكون هي الشخصيات هناك ، الأب التقليدي الذي يتنمي لعصر مضى ، والأولاد المتحررون الذين يعيشون هذا العصر مع استبدال الزوجة الأم في «العيال كبرت» بالزوجة الراقص في هذه المسرحية .

صحيح هذا وذاك ، ولكن الصحيح أيضا أن المؤلفين هنا في هذه المسرحية ، كأننا أكثر توفيقاً منها في المسرحية القديمة ، فالبناء المسرحي أكثر تكاملا ، دونما أحداث جانبية تؤدي إلى إحداث شروخ في هذا البناء ، والفكرة الرئيسية أكثر تبلورا ، دونما تفريعات هامشية أو ثانوية من شأنها تشتيت الفكرة . والشخصيات أكثر ترابطاً ، دونما تزييد في أدوار لا وظيفة لها في المسرحية .

وقد نلاحظ على المسرحية في حوارها التمثيلي ، قلة «الإفيئات» الكوميديية ، فضلا عن المواقف الضاحكة ، مما يجعلها كوميديا اجتماعية هادفة ، أكثر منها كوميديا إنسانية ضاحكة . وقد نلاحظ كذلك على فصلها الثاني ما فيه من إطالة ، وخاصة ذلك المشهد الطويل بين الأب وابنه الأصغر ، كما لو كان مشهداً في مسرحية للأطفال . وقد نلاحظ بعد هذا وذاك سرعة النهاية وعدم تبريرها درامياً

بما فيه الكفاية ، حيث يعود الجميع بمحائبهم إلى الأب ، دونما خطوة إيجابية منه لإعادة شمل العائلة . وقد نلاحظ أخيراً من ناحية « المورال » الأدبي أو الأخلاقي أن الخلاص كان بيد راقصة ، وليس خلاص العائلة فقط ، من خلال الأب ، ولكن خلاص المجتمع من خلال وكيل الوزارة ، وهو ما لا يمكن قبوله على الإطلاق .

أقول إننا قد نبدى هذه الملاحظات كلها وكثيراً غيرها ، على المسرحية ، بناءً وفكرة ، أسلوباً وحواراً ، ولكننا في الوقت ذاته لا نملك إلا أن نقول إننا بإزاء مسرحية كوميدية هادئة وهادئة ، لا أثر فيها لافعال المواقف والألفاظ الهزلية ، ولا مكان فيها للضحك من أجل الضحك أو الإضحاك بهدف الإضحاك ، وذلك على العكس تماماً مما اعتدناه في مسرحيات هذين المؤلفين وخاصة بهجت قر . على أن هذا الجو الهادئ والهادف ، فيما يتعلق بدراما الأسرة ، هو الذي كثيراً ما حلم به المخرج « سمير العصفوري » وما وفق في تجسيده هنا في هذه المسرحية ، وإن لم يحقق مثل هذا التوفيق في المسرحية السابقة « العيال كبرت » لقد ابتعد عن محاولة الإبهار الحركي والبصري فوق المسرح ، كما ابتعد عن محاولة الاستعانة ببدائل غير مسرحية كالشرائع السينمائية ، أو الحيل التلفزيونية ، أو المؤثرات الصوتية ، فضلاً عن ابتعاده عن محاولة افعال « الإهنيات » الكوميدية ، وانتزاعها انتزاعاً من أفواه الممثلين أو حشرها حشراً في سياق الحوار ، لهذا كله جاء إخراجه لهذه المسرحية ، وقد علتة مسحة من النضوج الفني ، والتعمق الفكري ، ومحاولة المزج بين البعدين مزجاً عضوياً ، متوازناً يقترب كثيراً من ذلك الكائن الكوميدي الواحد ، الذي يجمع بين كوميديا المثقفين وكوميديا الجماهير ، أو بين كوميديا الفرجة الخافلة بالضحكة والفكاهة ، وكوميديا الفكرة التي لا تخلو من المضمون الهادف ، مع قدر

غير قليل من اللذع الاجتماعى .

على أن « سحر العصفورى » فى الوقت الذى وفق فيه توفيقاً واضحاً فى استخدام الديكور الرائع الذى وضعه الفنان « هانى المصرى » ، سواء لثراء تكوينه ورشاقه خطوطه وجمال ألوانه ، أولوفاته بكافة مستلزمات المشاهد ، فيما عدا مشهد بيت الراقصة الذى كان دون المستوى بكثير ، لم يخالفه مثل هذا التوفيق فى اختيار الموسيقى المصاحبة للعرض المسرحى ، سواء فى افتتاحيات الفصول الثلاثة ، أو فى مصاحبات المشاهد والمواقف والشخصيات ، كانت الموسيقى بوجه عام . . . « أى كلام » .

فإذا انتقلنا إلى الأداء التمثيلى كان فى طليعته بطبيعة الحال الكوميديان الكبير « فؤاد المهندس » الذى يؤكد فى هذه المسرحية ، انتقاله من هزل الأداء الفكاهى إلى جد الأداء الكوميدى ، كما يؤكد قدرته على إشاعة جو الكوميديا من خلال الدور دونما لجوء إلى بهلوانية الحركات ، أو مجنون الكلمات ، أو جنسية الإيماءات ، لقد كان « المهندس » فى دور « أبو الفضل جاد الله » مثالا للأداء الكوميدى الراقى ، على العكس من « عبد الله فرغلى » فى دور « بسيوفى أبو الليل » ، الذى لم يستطع الارتفاع إلى هذا المستوى فى الأداء ، وظل ملتصقاً بالحركات التهرجية الفاقعة ، « والإفبهات » الفكاهية الزاعقة ، والمبالغة فى الانفعال وخاصة فى الفصل الأخير من المسرحية ، بقصد استجداء الضحكات من الجمهور ، مما أخرجه تماماً عن طبيعة الدور .

وأما الفنانة « شويكار » فقد أجادت على المستويين . . مستوى الأداء الكوميدى فى مشاهد الراقصة ، بكل ما يستلزمه من سوقية فى الألفاظ ، وخلاعة فى الحركات ، وعجبرية فى التعبير ، ومستوى الأداء الجاد فى مشاهد الزوجة ،

وما تقتضيه هذه المشاهد من تعميق للدور ، وإشباع للموقف ، وبلورة للفكرة العامة في تلك المسرحية ، ولو أنها بوجه عام لم تتخلص من آثار دورها في مسرحية « سيدنى الجميلة » والذي كانت قد تخلصت منه تماماً في مسرحية « ليه ؟ ليه ؟ » . وعلى العكس منها نجىء الفنانة الكبيرة « أمينة رزق » في دور « علوية هانم » وهو الدور الذى أدته باقتدار واضح على المستوى الميلودرامى ، حيث عمقها التعبيرى من ناحية ، واتساقها الشكلى مع طبيعة الدور من ناحية أخرى ، ولكنها عندما غادرت مياهاها الإقليمية في الأداء الميلودرامى ، كانت أقل اقتداراً على المستوى الكوميدى . بل كانت أقرب إلى محاولة افتعال الأداء الكوميدى . الذى لم يساعدها عليه لا تعبيرات الوجه ، ولا نبرات الصوت ، ولا أسلوب الحركة . وأخيراً نجىء الممثل الصاعد « محمود الجندى » في دور « نور » الابن الأكبر ، ليؤديه بوعى وحساسية ، ويكشف من خلاله برغم صغر مساحته فوق المسرح ، عن معدن فى أصيل ، قادر على المزيد من اللمعان ، لو أتيحت له فرص أكبر . إنها حقاً مسرحية جادة ، هذه المسرحية ، التى تستعيد إلى خشبة مسرحنا كوميدى الأسرة ، وتعود جمهور هذا المسرح ، على لون الكوميدى الذى يجمع بين المضمون الاجتماعى الهادف ، والذوق الكوميدى الرفيع .